

الشعيرة الأولى
الحزن



الحزن

الحُزْنُ - بالضمّ فالسّكون - هو أشدُّ الهم، والحَزَنُ - بفتحَتين - ضدّ السّرور، والمعني ببحثنا المعنى الأوّل، وهو شعور قلبي باطني يتفاوت قوّة وضعفاً، وقد أدرج الثعالبي في فقه اللغة عدّة مفردات في قائمة الحزن في أبواب متفرّقة من كتابه، فالكمّد حزنٌ لا يُستطاع إمضاؤه، والأسى واللهف حزنٌ على الشيء يفوت، والوجوم حزنٌ يُسكت صاحبه، والأسف حزنٌ مع غضب.

وواضحٌ أنّ الحزن يُعرّف بتعاريف مختلفة بحسب قوّته وضعفه وظهوره من كتم القلب، فبالمظاهر الصّادرة عن الإنسان وانطباعاته يمكن تشخيص مستوى الحزن ومسمّاه، ويضمّ معنىً نفسياً جامعاً يظهر على قسّمات الوجه وحركات الجوارح وينطبع على تصرّفات الإنسان، والذي يعيننا في موضوع الشعائر الحسينيّة هو ظهوره من كتم القلب وإظهاره بصورة واضحة كشعار من شعارات المذهب قد ندب إليه الدّين كما سيّتضح قريباً.

ويعدّ الحزن - في حدّ ذاته - عموماً في الفكر الدّيني شيءٌ ممدوح، وينطوي على مكارم نفسيّة عدّة، فاستشعار الحزن مقربٌ إلى الله تعالى، ومفتاح إلى هداية القلب، وروي عن أحدهم عليه السلام: إن من أحبّ عباد الله إليه عبداً أعانه الله على

نفسه فاستشعر الحزن وتجلّبب الخوف، فزهر مصباح الهدى في قلبه^(١).
 فالحزن شأن العباد وفيه رقة مندوبة في القلب، والإتصاف به شأن المؤمن
 الكامل، ولا يخلو منه في أحواله، ورؤي في كتاب التمحيص عن الإمام الصادق
 عليه السلام أنه قال: قرأت في كتاب علي عليه السلام إن المؤمن يُمسي ويُصبح حزينا، ولا
 يصلح له إلا ذلك^(٢).

ودار الدنيا محفوفة بموجبات ومقتضيات الحزن الدائم، فقد روي في وصايا
 رسول الله ﷺ لأبي ذر: يا أبا ذر، الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، وما أصبح
 فيها مؤمناً إلا حزينا، فكيف لا يحزن المؤمن وقد أوعده الله جل ثناؤه أنه وارد
 جهنم، ولم يعده أنه صادر عنها، وليلقين أمراضاً ومصيبات وأموراً تغيظه،
 وليُظلمن فلا ينتصر، يبتغي ثواباً من الله تعالى، فما يزال فيها حزينا حتى
 يفارقها، فإذا فارقها أفضى إلى الراحة والكرامة^(٣).

ويُرشدنا الخطابُ الديني إلى حكم بالغة تمهد بل تختصر علينا سبيل التدبر،
 فإذا ما لاحظنا الدنيا وجدنا أن في كل لذة منها غصة، وفي كل فرحة حزناً،
 وروي في كتاب عيون الحكم للواسطي عن أمير المؤمنين عليه السلام في وصف الدنيا:
 وُصل رخاؤها بالبلاء، وجُعل بقاؤها إلى الفناء، فرحها مشوب بالحزن، وآخر
 همومها إلى الوهن^(٤).

(١) راجع بحار الأنوار (٥٧/٢).

(٢) بحار الأنوار (٧١/٦٩).

(٣) راجع بحار الأنوار (٨٠/٧٤).

(٤) بحار الأنوار (١٠٩/٧٠).

وقال الشافعي :

أحسنْتَ ظنَّكَ بالأيَّامِ إذْ حَسُنْتَ ولمْ تخَفْ سوءَ ما يأتي به القَدْرُ
وسالمتك الليالي فاغتررت بها وعند صفو الليالي يحدث الكدرُ

وإنما يكون الحزن ممدوحاً إذا أفضى إلى صلاح الدين ، أمّا إذا كان على الدنيا وحطامها الزائل فإنه حزنٌ مذموم ، لأنه سخطٌ على قضاء الله سبحانه ، ففي تفسير العياشي مرفوعاً إلى أمير المؤمنين عليه السلام قال : مكتوبٌ في التوراة " من أصبح على الدنيا حزينا فقد أصبح لقضاء الله ساخطاً ، ومن أصبح يشكو مُصيبةً نزلت به فقد أصبح يشكو الله تعالى " (١) .

وأخذت الأحاديث بأنظارنا إلى أهمية الحزن ونزول الوحي به ، فمن المناسب أن نقرأ القرآن الكريم في حزن وبكاء ، فقد روي عن رسول الله ﷺ : إن القرآن نزل بالحزن ، فإذا قرأتموه ابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا (٢) .

وإذا كان الحزن قد رافق الوحي في تنزيله فقد روى الكليني رحمه الله ما يفيد أنّ الله تعالى رغب إلى مناجاته بالصوت الحزين أيضاً ، ففي الحديث القدسي : يا عيسى شمر ، فكلُّ ما هو آت قريب ، وقرأ كتابي وأنت طاهر ، وأسمعني منك صوتاً حزينا (٣) .

ويكون الأولياء عليهم السلام وأحباب الله تعالى في أحزانهم أقرب إليه ، مهما كانت موجبات ومقتضيات الحزن ، فربما ابتلاهم ليرفع درجاتهم فيكون حزنهم محبوباً

(١) بحار الأنوار (١٩٦/٦٩) .

(٢) راجع بحار الأنوار (١٩١/٨٩) .

(٣) بحار الأنوار (٢٩٣/١٤) .

عنده، فهو تأثر الرّاضي بالمصيبة، الذي لا يشكوربه ولا يسخط على قضائه. قال تعالى في حالات يعقوب النبي ﷺ: ﴿ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِیْضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾ يعني عميت من البكاء ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي محزون، والأسف أشدّ الحزن.

وسئّل أبو عبد الله ﷺ: ما بلغ من حزن يعقوب على يوسف؟ قال: حزن سبعين ثكلى بأولادها^(١).

إرث الحزن

الحزن في الأسرة النبويّة إرث كريم ورثه الأئمة عليهم السلام عن جدّهم النبي ﷺ، واختطّ رسول الله ﷺ بقلبه خطوطه العريضة وأوصاهم بالصبر الجميل، وشحذ سلاح الحزن والدمعة كضمان يتدارك به الشطر الباقي من هذا الدّين الذي ستأتي الأهواء على معاملة، فهي عبادة أرسى دعاماتها ووضع أساسياتها، بعد أن أنذر وحذر من العبث بسنته، وتكرّر في هذه الأمة دواهي الأمم الماضية، ولا بدّ حينئذٍ من مسعفٍ يضمن الإبقاء على قانون الشّرع الأقدس، ويحفظ خلود قضية الإمام الحسين ﷺ التي حفظت دينه غضناً طرياً.

فكرّس ﷺ محرّكات العاطفة ومهيّجات القلب وفعلها لربط عامّة المسلمين بشخصه الكريم ﷺ وبأهله الطيّبين عليهم السلام، فالحزن لحزنه يشعر المؤمنون بأهاته وآلامه، فيقتربون من قلبه الكئيب، ويذوبون في مشاعره وأحاسيسه وعواطفه الطاهرة، وهو سبيل الترقّي للكون معه في أقرب العبادات طريقاً إلى الله تعالى.

(١) راجع بحار الأنوار (٢٤٢/١٢) عن تفسير القمي.

ويؤسفني أنّ التاريخ النبوي مليئٌ بالحُزن والكمَد، وصفحاته تغصّ بالأهات وتئنّ من المصائب وتصرخ بالكروب وتعجّ بالأحزان، وقد كان من آخر ما تفوّه به نبيّنا الكريم ﷺ هو قوله لأهل بيته عليه السلام: أنتم المستضعفون بعدي!!

فأعدّ نبيّ الإسلام ﷺ أجواء الأحزان في محيط أهل بيته عليه السلام وربّاهم على مواجهة حزونة المسيرة، ومرّتهم على سلوك طريق ذات الشوكة، فألفوا همّه وذابوا في ذاته، وورثوا أحزانه على سيّد الشهداء عليه السلام باعتباره الشعار والدثار، فهو حامل راية قضيتهم وشاهد إستضعافهم وبرهان مظلوميّتهم.

نعم.. لقد حزن جدّهم ﷺ وأبوهم وأمّهم وعمّهم عليه السلام على سيد الشهداء عليه السلام قبل مقتله بعهد طويل، ثم إشتد حزن أولادهم بعد مقتله الأليم، فالمصاب بعد وقوعه أشدّ وقعاً منه قبل وقوعه، إذ أنّ وقوع المأساة أدعى للحزن الكبير وأكثر تحريكاً للمشاعر، فأثرت بانعكاساتها المشجّية على الناس بجميع أصنافهم وطبقاتهم، وعمّت بأصدائها وتأثيراتها على الخطباء والعلماء والشعراء والرثاة.

ولقد ورث أهل البيت عليه السلام الدور المقدّس الذي بدأه أبوهم الرسول ﷺ بمصابه وآلامه وآهاته ودموعه، وأعلنوا قضيّة الإمام الحسين عليه السلام قضيتهم الكبرى، فهي تنطوي على جملة حسراتهم وآهاتهم، وهي العنوان الأمثل المعبر عن سلسلة لا متناهية من الظّلامات، وتضمّ في مطاويها كلّ الحقوق والإلتزامات الإنسانيّة المهذرة، بعد أن افترضها الجليل سبحانه وأكّدها وأحكم ميثاقها على هذه الأمة كرامة لنبيّها الكريم ﷺ وأهل بيته الطاهرين عليه السلام.

ولقد خطى أهل البيت عليه السلام خطوات جبّارة في سبيل رفع شعيرة الحزن وتكبّدوا في سبيل تثبيتها عناء المواجهات، حتّى حازت مساعيهم على النّجاح

العظيم، وتكَلَّت جهودهم بالظفر والنَّصر المؤزَّر، واستطاعوا إرساء معالم قضية الإمام الحسين عليه السلام وتأصيل مختلف أبعادها، وتمكَّنوا من تجذير مفرداتها بشكل يحافظ على طراوتها وحرارتها على مرور الليالي والأيام.

ولقد سعوا عليهم بقضيتهم إلى حيث الخلود، وضمن الله سبحانه نجاح مسعاهم الكريم ومباركة جهودهم، وها نحن نشهد ثمار غرسهم المبارك بعد كل هذه المدَّة الطويلة، وها هم الشيعة يبذلون الرُّوح والمال والغالي والنفيس في سبيل رفع راية الأحران اليوم، وها هي ميازيب الدَّموع الحسينية لم تجف ولم تنضب في يوم واحد، وستبقى العيون تُجري دموعها أنهاراً أسفاً على الإمام الذي قضى إلى جانب الفرات عطشاً، وسيبقى الحزن الكبير متجدداً بخلفياته على مختلف الأصعدة.

وكانت رغبة الأئمة الطاهرين عليهم السلام ببث الأحران ونشرها نافذة في الضمائر، وحاكمة على القلوب الحرَّة، فاستجابت لدعوتهم الأمم الموقفة جيلاً بعد جيل، وكانت الإستجابة مشفوعة بمكانتهم المعنوية المتمكَّنة في النفوس الطيبة، فهم ورثة جدِّهم صلوات الله عليهم و خلفاؤه والعلماء من بعده، والمطهَّرون من الرِّجس والدَّنس والعيب تطهيراً، وهم سفن النَّجاة ومشاعل الهدى في دنيا الضلال، ولا يخامر مؤمنٌ شكٌ في كونهم الأدرى بخصوصيات بيت النبوة، فبيتهم مهبط الوحي وفي حُجراتهم نزل الرُّوح الأمين، وهم أحقَّ النَّاس بمنهجه صلوات الله عليهم وشريعته وأولى النَّاس بمواصلة طريقته والتَّسج على منواله.

فتضافت جهودهم عليهم السلام لإحياء المؤسسة الحسينية، وتبادلوا المواقف لتخليدها وإبقائها، وأثرت الحادثة في نفوسهم عليهم السلام بالغ الأثر، وطفَّت أحزانهم

وأحزان سائر العلويين على صفحات التأريخ فغطتها بالحزن والأسى، وراحوا يُبدون لوعتهم عليه في سرهم وعلنهم، وفي محافلهم الرسمية ومجالسهم الخاصة على حد سواء، وفي دورهم وأنديتهم.

وكان للأئمة الطاهرين عليهم السلام من ولد الإمام الحسين عليه السلام النصيب الأوفى من الحزن والجزع لمصابه، وقد نقل الرواة أخبار بكاء وحزن الإمام زين العابدين عليه السلام الكثير، وكانت قصصه محرّكة للشجون حقاً، إذ بكى على أبيه مدة أربعين سنة، وكذا حال أولاده من الأئمة عليهم السلام، وتتجدد أحزانهم في شهر المحرم وحتى في باقي المناسبات، وكذلك في الأعياد، فقد أثرت الحادثة عليهم تأثيراً كبيراً فأذكوا جذوة أحزانها لتبقى مشتعلة إلى آخر يوم من أيام الدنيا.

قال بعض العلماء: أما إنهم - أي الأئمة عليهم السلام - بكوا على الحسين وعدّوا مصيبته أعظم المصائب وأمروا شيعتهم ومواليهم وأتباعهم بذلك وحثّوا عليه واستنشدوا الشعر في رثائه وبكوا عند سماعه وجعلوا يوم قتله يوم حزن وبكاء، وذمّوا من اتخذ عيداً وأمروا ترك السعي فيه في الحوائج، وعدم ادخار شيء فيه.. فالأخبار مستفيضة عنهم، تكاد تبلغ حد التواتر، رواها عنهم ثقات شيعتهم ومحبيهم بأسانيد المتصلة إليهم^(١).

ولك أن تعرف أهل البيت عليهم السلام وتؤمن بإمامتهم بهذا البرهان الواقعي المشيد، فأيمانهم المباركة محلّ توفيق وتسديد الله تعالى، وخلود الحزن الحسيني بهذا الشكل الذي أرسوه إعجازاً لا ينكره إلا جاحد، وهم الذين قاموا بتشييده

(١) راجع إقناع اللائم للسيد محسن الأمين العاملي ص (٩٣).

عبر توظيف المؤثرات الفاعلة، ملاحظين محيط جزيرة العرب بخصوصياته ومميزاته، واستثمروا كلّ الطّاقات المتاحة لتثبيته وخلوده، وحركوا المؤثرين على المجتمع في سبيل ذلك، فوظفوا الرّثاة والشّعراء لاستثارة الشعور الإنساني من جهة وأماقي المحبّين من جهة أخرى، ورغبوا في زيارة سيّد الشهداء عليه السلام لشدّ الأواصر به وبمبادئه، ولكي يبقى شيعته على ارتباط وثيق دائم بعاصمة الحزن الحسيني.

وهم الذين جنّدوا النفوس والجهود والأموال في سبيل إبقاء مظاهر الولاء والحزن بمنهجية متقنة، وأخبارهم وأحاديثهم في هذا الصّد تلهب بلوعة المصاب، ونسجوا في ذلك على منوال جدّهم النبي ﷺ، فقفوا سيرته بإحيوا الأحزان على سيّد الشهداء عليه السلام بمناهج عدّة، تماشت مع هدي النبوة، حتّى اتسمت مظاهر الحزن الحسيني بسمة الشعيرة الدنيّة وأخذت طابعها الخاص، فاصطلح عليها الخواص والعوام "الشّعائر الحسينيّة"، وسوف تأتي عليها تباعاً إن شاء الله تعالى، وتعدّ جميعها أثافي الحزن الواجب على الإمام الحسين عليه السلام.

حزن العلويين

إنّ الأحزان الكربلائية قد لفت راية البشر والفرح في بيت علي وفاطمة عليهما بعد واقعة الطّف، وتسربل بنو هاشم سربال الحداد رجالاً ونساءً، وبقيت صور الحادثة الدّامية شاخصة أمام ناظر الصّغير والكبير منهم، وأثّرت الواقعة على نفوسهم فاشتعلت بنيران الحزن والمصاب.

وروي في البحار عن المرزباني بإسناده إلى الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أنه قال: ما اكتحلت هاشميّة، ولا اختضبت، ولا رئي في دار هاشمي

دُخان خمس حجج، حتى قتل عبيد الله بن زياد^(١).

ورُوِيَ فِيهِ بِالْإِسْنَادِ إِلَى السَّيِّدَةِ فَاطِمَةَ بِنْتِ عَلِيِّ عَلَيْهَا سَلَامٌ أَنَّهَا قَالَتْ: مَا تَحْتَأَتُ
امْرَأَةً مَنَّا، وَلَا أَجَالَتْ فِي عَيْنِهَا مَرُودًا، وَلَا امْتَشَطَتْ، حَتَّى بَعَثَ الْمُخْتَارُ رَأْسَ
عَبِيدِ اللَّهِ بْنِ زِيَادٍ^(٢).

إن أحزان الأسرة العلوية هي اللون الغالب على صفحات تاريخهم عَلَيْهِمُ السَّلَامُ
تُجَلَّلَتْهَا بِالْحُزْنِ وَالسَّوَادِ، وَضُمَّتْ أَخْبَارُ ثَوَابِ الْبُكَاءِ عَلَى مِصَابِ الْإِمَامِ الْحُسَيْنِ
عَلَيْهِمُ السَّلَامُ الْحَدِيثَ عَلَى أَحْوَالِ الْعَتْرَةِ وَأَحْزَانِهَا بَعْدَ الْحَادِثَةِ، مِمَّا يَرْكُزُ أَنَّ سِرَّ الثَّوَابِ
الْجَزِيلِ يَكْمُنُ فِي مَوَاسَاةِ الْعَتْرَةِ الطَّاهِرَةِ، كَمَا فِي هَذَا الْخَبَرِ ذِي الْمِضَامِينِ الْعَالِيَةِ..

رُوِيَ فِي كَامِلِ الزِّيَارَاتِ بِالْإِسْنَادِ إِلَى زَرَارَةَ أَنَّ الْإِمَامَ الصَّادِقَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ قَالَ: وَمَا
اخْتَضَبْتُ مَنَّا امْرَأَةً، وَلَا اذَّهَنْتُ، وَلَا اِكْتَحَلْتُ، وَلَا رَجَلْتُ، حَتَّى أَتَانَا رَأْسَ
عَبِيدِ اللَّهِ بْنِ زِيَادٍ، وَمَا زَلْنَا فِي عِبْرَةٍ بَعْدَهُ، وَكَانَ جَدِّي إِذَا ذَكَرَهُ بِكَيْ حَتَّى تَمَلَأَ
عَيْنَاهُ لِحَيْتَهُ، وَحَتَّى يَبْكِي لِبُكَائِهِ رَحْمَةً لَهُ مِنْ رَأْيِهِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ عِنْدَ قَبْرِهِ
لَيَكُونُ فِيكِي لِبُكَائِهِمْ كُلِّ مَنْ فِي الْهَوَاءِ وَالسَّمَاءِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ.

إِلَى أَنْ قَالَ: وَمَا مِنْ عَيْنٍ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ وَلَا عِبْرَةٍ مِنْ عَيْنٍ بَكَتْ وَدَمَعَتْ
عَلَيْهِ، وَمَا مِنْ بَاكِ يَبْكِيهِ إِلَّا وَقَدْ وَصَلَ فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَامُ وَأَسْعَدَهَا عَلَيْهِ، وَوَصَلَ
رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَدَّى حَقَّنَا، وَمَا مِنْ عَبْدٍ يُحْشِرُ إِلَّا وَعَيْنَاهُ بَاكِيَةٌ، إِلَّا الْبَاكِينَ
عَلَى جَدِّي الْحُسَيْنِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فَإِنَّهُ يُحْشِرُ وَعَيْنُهُ قَرِيرَةٌ وَالْبَشَارَةُ تَلْقَاهُ، وَالسَّرُورُ بَيْنَ
عَلَى وَجْهِهِ، وَالخَلْقُ فِي الْفَرْعِ وَهُمْ آمِنُونَ، وَالخَلْقُ يَعْرِضُونَ وَهُمْ حُدَاثُ الْحُسَيْنِ

(١) راجع بحار الأنوار (٣٨٦/٤٥).

(٢) راجع بحار الأنوار (٣٨٦/٤٥).

عليه السلام تحت العرش وفي ظل العرش، لا يخافون سوء يوم الحساب^(١). فلا زالت أحزان العترة عليه السلام في اضطرام دائم وتجدد مستمر، وكانت لوعاتهم على الإمام الحسين عليه السلام ولم تزل هي المظهر الأساس في سيرهم، ولم يقتصر أئمة أهل البيت عليه السلام على مناسبة خاصة لإسبال الدّمع وإبداء الجزع في هذا المصاب، بل كانت دموعهم تنهمر في مواسم الحزن المقترنة بالحادثة كما تنهمر في غيرها، غير أنّ أحزانهم تشتدّ في شهر المحرم، ولقد بكوا حتى أبكوا، وأمروا شيعتهم بالبكاء، ولكلّ منهم عليه السلام مظهر خاصّ في هذا الصّدّد، من زين عبادهم عليه السلام وحتى مهديهم المنتظر عليه السلام.

إلا أنّ الملفت للأنظار أنّ الأئمة عليه السلام سلكوا سبلاً محكمة رغم صعوبة الظروف في سبيل إذكاء الحزن والمصاب، وعملوا على تصوير المأساة بالأمها المحرقة، وبيّنوا انعكاساتها المؤلمة على نفوسهم وكم خلفت من الحسرات والأسى في صدورهم، حتى مزجوا ذكر الله تعالى بأهاتهم الحسينية، ونقل الرواة أشجى المشاهد عن حالات الأئمة عليه السلام في هذا الإتّجاه، وسنمّر على صور أحزانهم تباعاً.

حزن الإمام السجاد عليه السلام

إمتاز حزن الإمام علي بن الحسين عليه السلام على أحزان سائر الأئمة الطاهرين عليه السلام بالشجاء المرير، لكونه الشاهد الذي وقف على مصرع أبيه سيّد الشهداء عليه السلام والشهداء من أهل بيته وأصحابه الميامين عليه السلام وتجرّع غصص بلائهم وغموم

(١) راجع كامل الزيارات ص (٨١)، وبحار الأنوار (٢٠٧/٤٥)، ومستدرک الوسائل (٣١٣/١٠).

أرزائهم وآلام مصائبهم المفجعة، وعاین الوقعة بكل تفاصيلها وصورها المؤلمة، وقاسى من بعد هول الحادثة مرارة الأسر والدل، فلم تنقطع عبرته ما دام حياً. ورؤي في المناقب: أنه عليه السلام بكى حتى خيف على عينيه، وكان إذا أخذ ماءً بكى حتى يملأها دمعاً، فقيل له في ذلك، فقال: كيف لا أبكي وقد منع أبي من الماء الذي كان مطلقاً للسباع والوحوش، وقيل له: أنك لتبكي دهرك فلو قتلت نفسك لما زدت على هذا، فقال: نفسي قتلتها وعليها أبكي^(١).

وفيه أيضاً: أنه كلما جاء وقت الطعام وفتحت مصاريع الأبواب للناس ووضع طعامه بين يديه دمعت عيناه، فقال له أحد مواليه ذات مرة: يا ابن رسول الله، أما أن لحزنك أن ينقضي؟ فقال له زين العابدين: ويحك أن يعقوب عليه السلام كان له اثنا عشر ابناً، فغيّب الله واحداً منهم، فابيضت عيناه من الحزن وكان ابنه يوسف حياً في الدنيا، وأنا نظرت إلى أبي وأخي وعمي وسبعة عشر من أهل بيتي وقوماً من أنصار أبي مصرعين حولي، فكيف ينقضي حزني؟!^(٢).

وفي روضة الواعظين: عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: عاش علي بن الحسين أربعين سنة وما وضع طعام بين يديه إلا وبكى، حتى قال له مولى له: جعلت فداك، يا ابن رسول الله، إني أخاف أن تكون من الهالكين، قال عليه السلام: إنما أشكو بثي وحزني إلى الله، وأعلم من الله ما لا تعلمون، إني لم أذكر مصرع

(١) راجع مناقب ابن شهر آشوب (٤/١٦٦)، وبحار الأنوار (٤٦/١٠٨).

(٢) راجع مناقب ابن شهر آشوب (٤/١٦٥)، وبحار الأنوار (٤٦/١٠٨)، ووسائل الشيعة

(٢٨٢/٣)، واللهورف ص (٢٠٩)، ومسكن الفؤاد ص (١٠٠).

بني فاطمة إلا خفقتني العبرة^(١).

وروي في الوسائل عن الإمام الصادق عليه السلام أنه بكى على أبيه الحسين عليه السلام أربعين سنة صائماً نهاره قائماً ليله، فإذا أحضر الإفطار وجاء غلامه بطعامه وشرابه فيضعه بين يديه، فيقول: كل يا مولاي، فيقول: قتل ابن رسول الله جائعاً، قتل ابن رسول الله عطشاً، فلا يزال يكرّر ذلك ويبكي حتى يبيل طعامه من دموعه، ثم يمزج شرابه بدموعه، فلم يزل كذلك حتى لحق بالله عز وجل^(٢).

وروي في بحار الأنوار عند ذكر شعر الإمام زين العابدين عليه السلام هذه الأبيات:

نحْنُ بنوا المصطفى ذُؤوا غُصصٍ	يجرُّها في الأنامِ كاظمنا
عظيمة في الأنامِ محنتنا	أولنا مبتلى وأخرنا
يفرح هذا الوري بعيدهم	ونحن أعيادنا مآتمنا
والناس في الأمن والسرور وما	يأمن طول الزمان خائفنا
وما خصصنا به من الشرف	الطائل بين الأنام آفئنا
يحكم فينا والحكم فيه لنا	جاحدنا حقنا وغاصبنا ^(٣)

(١) راجع روضة الواعظين (٢/٤٥٠)، ومناقب ابن شهر آشوب (٤/١٦٥)، وبحار الأنوار (١٠٨/٤٦)، وقصص الأنبياء للجزائري ص (١٧٥)، وكامل الزيارات ص (١٠٧)، ومكارم الأخلاق ص (٣١٥).

(٢) راجع وسائل الشيعة (٣/٢٨٢ و ٢٧٨/٢٥)، وبحار الأنوار (٤٥/١٤٩)، واللهورف ص (٢٠٩)، والمجالس السنوية للسيد محسن الأمين ص (١٤٦).

(٣) راجع بحار الأنوار (٤٦/٩٢)، عنه المناقب (٤/١٥٦)، وأعيان الشيعة (٤/٢٤٩).

حزن الإمام الباقر عليه السلام

تنص أخبار الطّف على حضور الإمام محمّد بن علي الباقر عليه السلام في كربلاء، فقد شهد الواقعة الدّامية وهو في سنّ الطفولة، وكان مع جملة نساء الإمام الحسين عليه السلام وأطفاله في السّبي، إلّا أنّ أخبار أحزانه مُقتضبة جدّاً، ونلاحظ شحّ أخبار بكائه بالنسبة إلى أخبار سائر الأئمة عليهم السلام، فقليلاً ما يذكر المؤرّخون ذكر إقامة المآتم والنياحات العلنية على عهده.

والسرّ في ذلك ضيق الظّرف الذي عاشه عليه السلام، وشدّة ضغوط الأمويّين عليه وعلى آله وأصحابه، فلقد عانى المقرّبون من آل علي عليه السلام في زمانه معاناة شديدة، لكنّ صعوبة تلك الظروف لم تعق تأكيد القضية الحسينيّة وإظهار أحزانه، فقد عمد أهل البيت عليهم السلام في هذه الحالات إلى إقامة المآتم في بيوتهم الخاصة وراء الأستار الكثيفة، ولم يحضرها سوى خاصّتهم.

وكانت أحزان مولانا الباقر عليه السلام على مصاب جدّه عليه السلام كأحزان أبيه عليه السلام وسائر أولاده وعترته، فهم جميعاً يستشعرون الحزن كلّما هل هلال المحرم، وكانت تفد عليهم عليهم السلام وفود من الشعراء لتجديد تلك الذكرى، وقد ألقوا الرّوائع من شعرهم الخالد وتنافسوا في هذا الصّد، وازدهر فنّ رثائه في أحلك الظروف، وظل شعرهم خالداً رغم مرّ العصور.

ونقل المؤرّخون أن الشاعر العربي الكميّ بن زيد الأسدي - وهو من شعراء العصر الأموي، والمتوفّى في سنة ١٢٦ هـ - قد جعل معظم قصائده في مدح بني هاشم وذكر مصائب آل الرسول عليهم السلام حتى سمّيت قصائده بالهاشميات، وقال

أرباب التراجم أنه كان ينشد معظمها في مجالس الإمام الصادق عليه السلام وأبيه محمد الباقر عليه السلام وجدّه علي بن الحسين عليه السلام ^(١).

ونقل المؤرّخون أنّ الكميت الأسدي قدم المدينة وأنشد الإمام محمد الباقر عليه السلام الشعر، فلما بلغ قوله:

وقتيلٌ بالطفِّ غُوِّدِرَ منهمُ بينَ غوغاءِ أمّةٍ وطُغامِ

بكى الإمام، ثم قال: يا كميت، لو كان عندنا مال لأعطيناك، ولكن لك ما قال الرسول لحسان بن ثابت: لا زلت مؤيداً بروح القدس ما ذببت عنا أهل البيت ^(٢).

وفي الكافي عن الكميت بن زيد الأسدي، قال: دخلت على أبي جعفر عليه السلام فقال: والله يا كميت لو كان عندنا مال لأعطيناك منه، ولكن لك ما قال رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت: لن يزال معك روح القدس ما ذببت عنا ^(٣).

وروي في كامل الزيارات بالإسناد إلى أبي جعفر الباقر عليه السلام أنه قال: من زار الحسين عليه السلام يوم عاشوراء من المحرم حتى يظل عنده باكياً لقي الله تعالى يوم القيامة بثواب ألفي ألف حجة، وألفي ألف عمرة، وألفي ألف غزوة، وثواب كل حجة وعمرة وغزوة كثواب من حج واعتمر وغزا مع رسول الله ﷺ ومع الأئمة الراشدين صلوات الله عليهم أجمعين.

فقليل له: جعلت فداك، فما لمن كان في بعد البلاد وأقاصيها، ولم يمكنه

(١) راجع كتاب نهضة الحسين ص (١٥٢).

(٢) راجع الكثير من تلك الأخبار بمصادرها في كتاب الشيعة والحاكمون ص (١٢٦).

(٣) راجع الكافي (١٠٢/٨)، وبحار الأنوار (٢٦٦/٣٠ و ٣٤١/٤٦)، ووسائل الشيعة (٥٩٤/١٤).

المسير إليه في ذلك اليوم ؟

قال : إذا كان ذلك اليوم برز إلى الصحراء أو صعد سطحاً مرتفعاً في داره وأوماً إليه بالسلام واجتهد على قاتله بالدعاء وصلى بعده ركعتين ، يفعل ذلك في صدر النهار قبل الزوال ، ثم ليندب الحسين عليه السلام ويبكيه ويأمر من في داره بالبكاء عليه ويقيم في داره مصيبته بإظهار الجزع عليه ، ويتلاقون بالبكاء بعضهم بعضاً في البيوت وليعزّ بعضهم بعضاً بمصاب الحسين عليه السلام فأنا ضامن لهم إذا فعلوا ذلك على الله عز وجل جميع هذا الثواب.

فقل له : جُعلت فداك ، وأنت الضامن لهم إذا فعلوا ذلك والزعيم به ؟

قال : أنا الضامن لهم ذلك والزعيم لمن فعل ذلك.

فقل له : فكيف يعزّي بعضهم بعضاً ؟

قال : يقولون : عظم الله أجورنا بمصابنا بالحسين عليه السلام وجعلنا وإياكم من الطالبين بثأره مع وليه الإمام المهدي من آل محمد عليهم السلام ، فإن استطعت أن لا تنتشر يومك في حاجة فافعل ، فإنه يوم نحس لا تقضى فيه حاجة ، وإن قضيت لم يبارك له فيها ولم ير رشداً ، ولا تدّخرن لمنزلك شيئاً فإنه من ادخر لمنزله شيئاً في ذلك اليوم لم يبارك له فيما يدّخره ، ولا يبارك له في أهله ، فمن فعل ذلك كتب له ثواب ألف ألف حجّة وألف ألف عمرة وألف ألف غزوة ، كلها مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وكان له ثواب مصيبة كل نبي ورسول وصديق وشهيد ، مات أو قتل منذ خلق الله الدنيا إلى أن تقوم الساعة^(١).

(١) راجع كامل الزيارات ص (١٧٤) ، ووسائل الشيعة (١٤/٥٠٩) ، ومستدرك الوسائل (١٠/٣١٥) ، والبلد الأمين ص (٢٦٩) ، ومصباح الكفعمي ص (٤٨٢) ، ومصباح المتهجد ص (٧٧).

حزن الإمام الصادق عليه السلام

الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أكثر الأئمة الطاهرين عليه السلام حزناً وبكاءً ونياحةً على جده الشهيد عليه السلام من حيث النقل، وكان له الشطر الأكبر من المرويّات في هذا الباب، والسرّ في هذه الظاهرة يرجع لانشغال الدولة الأمويّة عن أهل البيت عليه السلام باضطراباتهما السياسيّة وضعفها وإشرافها على السقوط، إذ تداعت في هذه الفترة أركان سلطتها وآل أمرها إلى التبدّد والضعف الشديد، فعاصر عليه السلام عهد التحوّل السياسي من الدولة الأمويّة إلى العباسية، واستغلّ انشغال الدولتين لصالح قضيته، وتوالت الروايات والأخبار في وصف بكائه ونحيبه وتواترت، ومألت بطون كتب التاريخ وأسفار الحديث بشكل واضح ومكثّف.

رُويَ في كامل الزيارات بالإسناد إلى أبي بصير، قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام أحدثه، فدخل عليه ابنه، فقال له: مرحباً، وضّمّه وقبله، وقال: حقّر الله من حقّركم، وانتقم ممّن وترككم، وخذل الله من خذلكم، ولعن الله من قتلكم، وكان الله لكم وليّاً وحافظاً وناصرّاً، فقد طال بكاء النّساء وبكاء الأنبياء والصدّيقين والشهداء وملائكة السّماء، ثم بكى وقال: يا أبا بصير، إذا نظرت إلى ولد الحسين أتاني ما لا أملكه بما أتى إلى أبيهم وإليهم.

يا أبا بصير، إن فاطمة عليها السلام لتبكيه وتشهق، فتزفر جهنم زفرة لو لا أن الحزنة يسمعون بكاءها وقد استعدّوا لذلك مخافة أن يخرج منها عنق أو يشرد دخانها فيحرق أهل الأرض فيحفظونها ما دامت باكية، ويزجرونها ويوثقون من

أبوابها مخافة على أهل الأرض ، فلا تسكن حتى يسكن صوت فاطمة الزهراء ، وإن البحار تكاد أن تنفتق ، فيدخل بعضها على بعض ، وما منها قطرة إلا بها ملك موكل ، فإذا سمع الملك صوتها أطفأ نارها بأجنحته وحبس بعضها على بعض مخافة على الدنيا وما فيها ومن على الأرض ، فلا تزال الملائكة مشفقين يبيكونه لبكائها ويدعون الله ويتضرعون إليه ويتضرع أهل العرش ومن حوله وترتفع أصوات من الملائكة بالتقديس لله مخافة على أهل الأرض ، ولو أن صوتا من أصواتهم يصل إلى الأرض لصعق أهل الأرض وتقطعت الجبال وزلزلت الأرض بأهلها.

قلت : جُعلت فداك ، إن هذا الأمر عظيم !!

قال : غيره أعظم منه ما لم تسمعه.

ثم قال لي : يا أبا بصير ، أما تحب أن تكون فيمن يسعد فاطمة عليها السلام ؟

فبكيت حين قالها ، فما قدرت على المنطق ، وما قدر على كلامي من البكاء ، ثم قام إلى المصلّى يدعو ، فخرجت من عنده على تلك الحال ، فما انتفعت بطعام وما جاءني النوم وأصبحت صائما وجللاً حتى أتيته ، فلما رأيته قد سكن سكنت وحمدت الله حيث لم تنزل بي عقوبة^(١).

وروي في كامل الزيارات بالإسناد إلى أبي عمارة المنشد ، قال : ما ذكر الحسين عليه السلام عند أبي عبد الله عليه السلام في يوم قط فرأى أبو عبد الله عليه السلام متبسماً في

(١) راجع كامل الزيارات ص (٨٢) ، وبحار الأنوار (٢٠٨/٤٥) ، ومستدرک الوسائل (٣١/١٠).

ذلك اليوم إلى الليل، وكان عليه السلام يقول: الحسين عليه السلام عبرة كل مؤمن^(١).

حزن الإمام الكاظم عليه السلام

ونلاحظ عند البحث والتحريّ شحّ المرويّات المنقولة لنا عن حزن الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام، والسّر يرجع إلى اشتداد الوطأة العبّاسيّة وسياستها الشديدة مع كل ما يمتّ للعلويّين بالصلّة، إذ بالغوا في الحرب ضدّ بني فاطمة الزهراء عليها السلام جاهدين لمحقّ هذا الشّعار، وكانت مرحلة صعبة ومهمّة في تاريخ العترة وطقوسهم المحبّية، فهي معركة وجود!

لقد عاصر عليه السلام أعتى حكام بني العبّاس على الإطلاق، وعایش نشاط الدولة الجديدة الفتيّة، واستواء الرشيد على كرسي الحكم، وصبر على جفوتهم وكظم على ظلمهم، حتّى بلغ الحال أن قضى - وهو شيخ الطالبيين وإمام الأمة - زهرة عمره الشريف في زنازينهم، ينقل من سجن إلى سجن، وتوالت عليه كروب الغربة والفقد وبعّد الأهل ومعاناة السجن، حتّى قبض في سجن هارون الرشيد مظلوماً مسموماً مهتضماً.

ولقد طمرت - في تلك الفترة العاتية - أصوات العترة في غياهب السجون، وزجّ بالعلويّين في أقسى المحابس وأبعدها عن نور الشّمس، ونكّل بالعترة النبويّة شرّ تنكيل، وتقربّ القادة والزعماء والولاة والسّعاة إلى الرشيد ووزرائه بدماء بني علي وفاطمة عليها السلام، وكم قدّمت رؤوسهم إلى هارون تحفاً في أيّام التّوروز،

(١) راجع كامل الزيارات ص (١٠١ و ١٠٨)، وبحار الأنوار (٢٨٠/٤٤)، ومستدرک الوسائل (٣١٢/١٠).

حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وكان بطن الأرض لهم خير من ظهرها. ومع كل هذا الصلف العاتي والسيرة الظالمة فقد حافظ الشيعة الأبرار على إرث الحزن، وضمّوا الشعائر الحسينية في قلوبهم البارة، وأذكوا شعلة الأحزان على سيد الشهداء عليه السلام بكلّ أمانة وقوّة، ولم يمنعهم الظرف الذي حجب إمامهم عنهم من رفع هذا الشعار، فقد أحيوا أحزانهم وجدّدوا مصابهم به في قعر بيوتهم أسوة بإمامهم عليه السلام.

ونقل الإمام الرضا عليه السلام لنا صورة مشجّية عن أحوال أبيه الإمام الكاظم عليه السلام في شهر المحرم، وهي عمدة التصوص في أحزانه على جدّه المظلوم عليه السلام. وروى الشيخ الصدوق رحمته الله بإسناده إلى إبراهيم بن أبي محمود قال: قال الإمام الرضا عليه السلام: كان أبي عليه السلام إذا دخل شهر المحرم لا يرى ضاحكاً، وكانت الكآبة تغلب عليه حتى يمضي منه عشرة أيام، فإذا كان يوم العاشر كان ذلك اليوم يوم مصيبتته وحزنه وبكائه، ويقول: هو اليوم الذي قتل فيه الحسين عليه السلام^(١).

حزن الإمام الرضا عليه السلام

وتعود في عهد الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام الأحزان ظاهرة معلنة كسابق عهدها، وقد امتلأت كتب التاريخ والحديث بأخبار حزنه على جدّه الإمام الحسين عليه السلام، ولدى النظر يبدو لي أنّ الإمام عليه السلام إنّما قبل ولاية العهد الشكليّة لينهض بعلم أهل البيت عليهم السلام وشعاراتهم التي حاول طمسها حكام الجور وطفاة

(١) راجع أمالي الصدوق ص (١٢٨)، وبحار الأنوار (٢٨٤/٤٤)، ووسائل الشيعة (٥٠٥/١٤)، وإقبال الأعمال ص (٥٤٤)، وروضة الواعظين (١٦٩/١).

الأمّة، ولقد شيّد عليّ السلام العلم النبوي في فترة ولايته للعهد بشكل ظاهر، فالروايات المرويّة عنه عليّ السلام كثيرة جداً في مختلف الأبواب، ولا تظهر عليها ملامح التقية إلا نادراً.

وقد رفع الإمام الرضا عليّ السلام شعار الأحزان وأعلن وجده على جدّه الحسين عليّ السلام وهو مترّب على هرم السّلطة وولاية العهد التي قبلها مرغماً، واستقبل الشعراء والرثاة والمنشدين في بيت الحكم، وسنواجه قريباً خبر دعبل بن علي الخزاعي رحمته الله الذي أنشد تائيته العصماء في محضره الشريف.

وتتميّز المرويّات الصّادرة عن الرضا عليّ السلام حول المقتل بجرارة خاصّة، وتظهر عليها سيمّة الحزن الكبير، وتنطوي على تفاصيل مهمّة جداً.. منها ما رواه الشيخ الصدوق رحمته الله بأسناده إلى إبراهيم بن أبي محمود، قال: قال الإمام الرضا عليّ السلام: إن المحرمّ شهر كان أهل الجاهليّة يحرّمون فيه القتال، فاستحلّت فيه دماؤنا، وهتكت فيه حرمتنا، وسبّي فيه ذرارينا ونساؤنا، وأضرمت النيران في مضاربنا، وانتهب ما فيها من ثقلنا، ولم تُرع لرسول الله حرمة في أمرنا.

إن يوم الحسين أقرح جفوننا، وأسبل دموعنا، وأذلّ عزيزنا بأرض كرب وبلاء، أورثتنا الكرب والبلاء إلى يوم الإنقضاء، فعلى مثل الحسين فليكن الباكون فإنّ البكاء عليه يحطّ الذنوب العظام.

ثم قال عليّ السلام: كان أبي إذا دخل شهر المحرم لا يرى ضاحكا وكانت الكآبة تغلب عليه حتى يمضي منه عشرة أيام، فإذا كان يوم العاشر كان ذلك اليوم يوم

مصيبتة وحزنه وبكائه ويقول: هو اليوم الذي قتل فيه الحسين صلى الله عليه^(١). ويستعرض الإمام الرضا عليه السلام في خبر آخر المأساة بعمقها التاريخي والمأساوي، ويبيّن مدى تأثيرها على أهل البيت عليه السلام، ويؤكد عظمة شهر المحرم وفضيح من انتهك فيه من حريمهم المقدسة.

وروى بإسناد يرفعه إلى الريان بن شبيب، قال: دخلت على الرضا عليه السلام في أول يوم من المحرم، فقال لي: يا ابن شبيب أصائم أنت؟
فقلت: لا!!

فقال: إن هذا اليوم هو اليوم الذي دعا فيه زكريّا ربّه عز وجل، فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾. فاستجاب الله له، وأمر الملائكة فنادت زكريّا وهو قائم يصلي في المحراب: ﴿أَنْ أَلَّهُ يُشْرِكَ بِيحْيَى﴾ فمن صام هذا اليوم ثم دعا الله عز وجل استجاب الله له كما استجاب لزكريّا عليه السلام. ثم قال: يا ابن شبيب، إن المحرم هو الشهر الذي كان أهل الجاهلية فيما مضى يجرّمون فيه الظلم والقتال لحرمة، فما عرفت هذه الأمة حرمة شهرها ولا حرمة نبيّها، لقد قتلوا في هذا الشهر ذريّته، وسبوا نساءه، وانتهبوا ثقله، فلا غفر الله لهم ذلك أبداً.

يا ابن شبيب إن كنت باكياً لشيء فابك للحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام فإنه ذبح كما يُذبح الكبش، وقُتل معه من أهل بيته ثمانية عشر رجلاً، ما

(١) راجع أمالي الصدوق ص (١٢٨)، وبحار الأنوار (٢٨٣/٤٤)، ووسائل الشيعة (٥٠٥/١٤)، وإقبال الأعمال ص (٥٤٤)، وروضة الواعظين (١٦٩/١)، ومناقب ابن شهر آشوب (٨٦/٤).

لهم في الأرض شبيهون.

ولقد بكت السماوات السبع والأرضون لقتله ، ولقد نزل إلى الأرض من
الملائكة أربعة آلاف لنصره ، فوجدوه قد قتل ، فهم عند قبره شعث غبر إلى أن
يقوم القائم ، فيكونون من أنصاره ، وشعارهم يا لثارات الحسين .
يا ابن شبيب ، لقد حدثني أبي عن أبيه عن جدّه أنّه لما قتل جدي الحسين
أمطرت السماء دماً وتراباً أحمر .

يا ابن شبيب ، إن بكيت على الحسين حتى تصير دموعك على خديك غفر
الله لك كل ذنب أذنبته صغيراً كان أو كبيراً ، قليلاً كان أو كثيراً .
يا ابن شبيب ، إن سرّك أن تلقى الله عز وجل ولا ذنب عليك ، فزُر
الحسين عليه السلام .. يا ابن شبيب ، إن سرّك أن تسكن الغرف المبنية في الجنة مع النبي
صلى الله عليه وآله فالعن قتلة الحسين .

يا ابن شبيب ، إن سرّك أن يكون لك من الثواب مثل ما لمن استشهد مع
الحسين فقل متى ما ذكرته : يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً .
يا ابن شبيب ، إن سرّك أن تكون معنا في الدرجات العلى من الجنان ، فاحزن
لحزننا ، وافرح لفرحنا ، وعليك بولايتنا ، فلو أن رجلاً تولّى حجراً لحشره الله معه
يوم القيامة^(١) .

(١) راجع عيون أخبار الرضا عليه السلام (١/٢٩٩)، أمالي الصدوق ص (١٢٩)، إقبال الأعمال ص (٥٤٤)، بحار الأنوار (٤٤/٢٨٥) و (٩٨/١٠٢) ووسائل الشيعة (١٤/٥٠٢).

حزن أبناء الرضا عليه السلام

أكد لنا التاريخ أنّ الأئمة الطاهرين عليه السلام الذين خلفوا الإمام علي الرضا عليه السلام عرفوا به بين عامة الناس، وكان يُدعى واحدُهم بابن الرضا، نظراً لشهرته عليه السلام وانتشار اسمه كولي للعهد في البلاط العباسي، ويُعدّ تسنّمه الجبري لهذا المنصب آخر ظهور قوي للإمامة على الساحة السياسيّة أو الاجتماعيّة، ثمّ ينحدر مستوى الظهور والبروز من بعد ذلك إلى أقصى صور البُعد عن السّاحة.

وتوالى الحكّام من بني العباس على كرسيّ الخلافة محمّلين بأعباء التجربة التي أودت بشخصيّة المأمون السياسيّة، فعمل التّالون له على إقصاء آل علي عليه السلام ومناذة ساداتهم الأئمة عليه السلام وعزلهم عن المجتمع بكلّ عزم وجد، وبالعأسلافهم في حرب الشعائر المتصلة بالعلويّين، وتفنّنوا في بناء السّدود بين الأئمة عليه السلام حتّى أقصوهم عن حواضر الدّولة الإسلاميّة ونفّوهم إلى أقصى القرى.

وفي هذا الظرف الصعب نهض الأئمة الطاهرون عليه السلام بأعباء شعائر الحزن على جدّهم الإمام الحسين عليه السلام بعناء كبير، واستغلّوا المتنفّسات البسيطة ليقولوا كلمتهم في أحلك الظروف وأعتاها، فعمل الإمام محمّد بن علي الجواد عليه السلام، وولده الإمام علي بن محمد الهادي عليه السلام، وولده الإمام الحسن بن علي العسكري عليه السلام على تقوية الشعائر تبعاً للسياسة التي كان يمارسها الخلفاء العباسيون وسلطاتهم تجاه شيعتهم الأبرار، فكانوا يقيمونها سرّاً في الأعم الأغلب، وتارة تُمنع حتّى إذا كانت سرّاً!!

فلمّا صاهر المأمون العباسي الإمام الجواد عليه السلام وزوّجه ابنته أم الفضل

تساهل في أمر أحزان العلويين على الإمام الحسين عليه السلام ، فقد كانت المجالس تقام في دور العلويين علناً دون أي ضغط ، واستمرت هذه الحالة إلى عهد المعتصم الذي كان يسعى لمراعاة شعور العلويين والموالين لآل البيت عليهم السلام ، فكان يسمح لهم بإقامة المناحات الحسينية في دورهم وخارجها سرّاً وعلناً.

ثم تشدّد الحكّام الذين خلفوا المعتصم في أمر الشعائر الحسينية ، وضيّقوا الخناق على الأئمة الطاهرين عليهم السلام وشيعتهم ومواليهم ، ومنعواهم من إقامتها بكل وسيلة ، غير أنّ الشيعة الذين لم يقيموا العزاء علناً لم يمتنعوا عن إقامتها سرّاً في دورهم.

وينقل التاريخ أنهم كانوا يسدلون الأستار على الأماكن التي كانوا يقيمون فيها شعائر الحزن ، سواء كانت في دورهم أو عند قبور الأئمة الطاهرين عليهم السلام ، وكانوا يقصدون قبر الإمام الحسين عليه السلام بكربلاء ، وقبر الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في النجف الأشرف ، وقبري الإمامين الجوادين عليهما السلام في الكاظمية وهو المكان المعروف وقتها بمقابر قريش ، وعند التحريّ نجد أنّ أخبار إقامة الشعائر الحسينية على عهد الإمامين الهادي والعسكري عليهم السلام شحيحة جداً.

حزن الإمام المنتظر عليه السلام

الإمام صاحب الزّمان عليه السلام هو وارث الحزن الحسيني ، وتالي الإمام زين العابدين عليه السلام في حزنه وبكائه ، إن لم يكن معه في رتبته ، فهو الوليّ ثار جدّه عليه السلام وحامل راية تربيته ، والثائر الذي يملأها قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً ، والأخبار تصرّح بأن المنطلق في نهضته بعد مكة والمدينة.. كربلاء !!

يعيش المولى صاحب الزمان عليه السلام في غيبته في أشجى حالات الحزن والمصيبة والوجد والكمَد، ومصاب جدّه الشهيد عليه السلام شاخصاً أمام ناظره، ولا شكّ في أنّ أفضل المقرّبات إليه الحزن على جدّه عليه السلام والبكاء عليه.

وروى المحدثون زيارتين جليلتين عنه عليه السلام تُعرب عن كمده، أمّا الأولى فإنّه عليه السلام يزور فيها الشهداء شهيداً بعد شهيد، ويذكر أسماء من استشهد بين يدي جدّه عليه السلام، وأمّا الثانية فإنّه عليه السلام يُبدي فيها أحزانه ولو اعجبه تجاه المصيبة التي تصغر عندها مصائب الدّنيا، وفيها يستعرض بعض المشاهد المؤلمة ضمن مسلسل الأحداث المهيّجة الواقعة على مسرح الطّف، وهي كفيلاً بإذكاء لوعة الحزن الحسيني وشبّ لوعته على مرور الليالي والآيام، ويكفيها أن تمر ببعض فقراتها.

فلقد قال تالي السلف ومعدن الشرف عليه السلام: "السلام على المرمّل بالدماء، السلام على المهتوك الخباء، السلام على خامس أصحاب أهل الكساء، السلام على غريب الغرباء، السلام على شهيد الشهداء، السلام على قتيل الأعداء، السلام على ساكن كربلاء، السلام على من بكته ملائكة السماء".

ويقول عليه السلام: "السلام على الجيوب المضرجات، السلام على الشّفاه الذابلات، السلام على النفوس المصطلّات، السلام على الأرواح المختلّسات، السلام على الأجساد العاريات، السلام على الجسوم الشّاحبات، السلام على الدّماء السّائلات، السلام على الأعضاء المقطّعات، السلام على الرؤوس المشالات، السلام على النسوة البارزات".

ويقول عليه السلام: "السلام على القتل المظلوم، السلام على أخيه المسموم، السلام على علي الكبير، السلام على الرضيع الصغير، السلام على الأبدان

السلبية، السلام على العترة القريبة، السلام على المجدلين في الفلوات، السلام على النازحين عن الأوطان، السلام على المدفونين بلا أكفان، السلام على الرؤوس المفرقة عن الأبدان".

ويقول عليه السلام: "السلام على من هتكت حرمته، السلام على من أريق بالظلم دمه، السلام على المغسل بدم الجراح، السلام على المجرع بكاسات الرماح، السلام على المضام المستباح، السلام على المنحور في الورى، السلام على من دفنه أهل القرى".

ويقول عليه السلام: "السلام على المقطوع الوتين، السلام على المحامي بلا معين، السلام على الشيب الخضيب، السلام على الخد التريب، السلام على البدن السليب، السلام على الثغر المقروع بالقضيب، السلام على الرأس المرفوع، السلام على الأجسام العارية في الفلوات، تنهشها الذئاب العاديات، وتختلف إليها السباع الضاريات".

ويقول عليه السلام: "السلام عليك، سلام العارف بحرمتك، المخلص في ولايتك، المتقرب إلى الله بمحبتك، البريء من أعدائك، سلام من قلبه بمصابك مقروح، ودمعه عند ذكرك مسفوح، سلام المفجوع الحزين، الواله المستكين".

ويقول عليه السلام: "سلام من لو كان معك بالطفوف، لوقاك بنفسه حد السيوف، وبذل حشاشته دونك للحتوف، وجاهد بين يديك، ونصرك على من بغى عليك، وفداك بروحه وجسده، وماله وولده، وروحه لروحك فداء، وأهله لأهلك وقاء".

فلئن أحررتني الدهور، وعاقني عن نصرك المقدور، ولم أكن لمن حاربك

محارباً، ولمن نصب لك العداوة مناصباً، فلأنديبك صباحاً ومساءً، ولأبكين لك بدل الدموع دماً، حسرة عليك وتأسفاً، على ما دهاك وتلهفاً، حتى أموت بلوعة المصاب، وغصة الإكتئاب."

ويقول عليه السلام: "قد عجبت من صبرك ملائكة السماوات، فأحدقوا بك من كل الجهات، وأثخنوك بالجراح، وحالوا بينك وبين الرواح، ولم يبق لك ناصر، وأنت محتسب صابر، تذب عن نسوتك وأولادك، حتى نكسوك عن جوادك، فهويت إلى الأرض جريحاً، تطوّك الخيول بحوافرها، أو تعلقوك الطغاة ببواترها، قد رشح للموت جبينك، واختلفت بالانقباض والانبساط شمالك ويمينك، تدير طرفاً خفياً إلى رحلك وبيتك، وقد شُغلت بنفسك عن ولدك وأهلك."

وأسرع فرسك شارداً، إلى خيامك قاصداً، محمماً باكياً، فلمّا رأين النساء جوادك مخزياً، ونظرن سرجك عليه ملوياً، برزن من الخدور، ناشرات الشعور، على الحدود لاطمات، الوجوه سافرات، وبالعويل داعيات، وبعد العزّ مذلات، وإلى مصرعك مبادرات، والشمر جالس على صدرك، ومولغ سيفه على نحرّك، قابض على شيتك بيده، ذابح لك بمهنده، قد سكنت حواسك، وخفيت أنفاسك، ورفع على القناة رأسك."

ويقول عليه السلام: "وسُبي أهلك كالعييد، وصفدوا في الحديد، فوق أقتاب المطيات، تلفح وجوههم حر الهاجرات، يساقون في البراري والفلوات، أيديهم مغلولة إلى الأعناق، يطاف بهم في الأسواق."

ويقول عليه السلام: "فقام ناعيك عند قبر جدك الرسول ﷺ، فنعاك إليه بالدمع الهطول، قائلاً: يا رسول الله، قتل سبطك وفتاك، واستبيح أهلك وحماك،

وسبيت بعدك ذراريك ، ووقع المحذور بعترتك وذويك ، فانزعج الرسول ، وبكى قلبه المهول ، وعزّاه بك الملائكة والأنبياء ، وفجعت بك أمك الزهراء ، واختلف جنود الملائكة المقربين ، تعزّي أباك أمير المؤمنين ، وأقيمت لك المآتم في أعلى عليين ، ولطمت عليك الحور العين ، وبكت السماء وسكانها ، والجنان وخزانها ، والهضاب وأقطارها ، والبحار وحيثانها ، والجنان وولدانها ، والبيت والمقام ، والمشعر الحرام ، والحل والإحرام" (١).

ولدى التأمل في هذا النص الشريف نعرف أنّ أحزان المولى صاحب الأمر عليه السلام تفوق أحزان الجميع على مصاب جدّه عليه السلام ، خصوصاً بعد التأمل في قوله : " فلأندبّك صباحاً ومساءً ، ولأبكينّ لك بدلَ الدّموع دماً ، حسرةً عليك وتأسفاً ، على ما دهاك وتلهّفاً ، حتّى أموت بلوعة المصاب ، وغصّة الإكتئاب . "

أما الشيعة فإنهم اختزلوا هذه الصور المؤلمة التي نفثها مصدر الأئمة عليهم السلام وولي ثأرهم ، وتلقوا تكليفهم بالبكاء والحزن من إمام زمانهم بتلقائية ، وعرفوا على رغم كل الصّعاب وتحت وطأة أشدّ الظروف في زماني الحضور والغيبة أنّ أئمتهم الأبرار عليهم السلام قد أمرهم بنشر الحزن وإقامة الشعائر الحسينية عند القدرة بحسب سعة الظرف ، وتناقلوا الأدوار وتبادلوها تبعاً لأئمتهم عليهم السلام .

(١) راجع بحار الأنوار (٣١٨/٩٨ - ٢٣٢) ضمن الزيارة المروية عن النّاحية المقدّسة على صاحبها آلاف التحية والصلاة والسلام ، ولنا شرح على فقراتها ، نسأل الله تعالى بمّته وكرمه أن يلهمنا الخير والصواب في إتمامه ، ويوفّقنا لنيل عناياته ومراضيه وأداء حقوقه ، وأن يجمعنا تحت لوائه المنصور ، وأن يعجّل فرجه ويطيّل في عمره الشريف ، ويشركنا في دعائه.

وكان لهذه النصوص الشريفة الأثر البالغ في تعبأة نفوس الشيعة على مرور الليالي والأيام، فأخذت هذه المحفّرات دورها وقامت بتأثيرها المطلوب، فترجمها الموالون والمحبّون أدواراً يُظهرون فيها ولاءهم لساداتهم عليهم السلام عبر مظاهر الحزن المختلفة، كمجالس العزاء والبكاء ومواكب العزاء واللطم وكتابة الشعر وإنشاده وكتابة الكتب والمقالات، وغير ذلك مما ثبت رُجحانه وجزيل الثواب عليه، حتى صار الحزن على الإمام الحسين عليه السلام صرحاً قائماً بذاته، تزول الليالي ولا يزال، من صارعه صرعه، ولا تقوى قوّة مهما اشتدت أن تنال شيئاً من عظمته، وهكذا ينمي ربنا أعمال المتقين المخلصين حين يتقبل منهم.

ويجدر بنا التأمل والوقوف على هذا الحديث الذهبي الذي رواه شيخ الطائفة رحمته بالإسناد إلى أبان بن تغلب، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: نَفَسُ المهوم لظلمنا تسييح، وهمُّه لنا عبادة، وكتمانُ سرِّنا جهادٌ في سبيل الله. ثم قال أبو عبد الله عليه السلام: يجب أن يكتب هذا الحديث بالذهب^(١).

وفيه يُفصح الإمام عليه السلام عن حقيقة مقام المؤمن المكتتب لمصابهم، فهو في منزلة الملائكة المسبّحين المنزهين الذين لا يفترّون عن تسييحهم لله تعالى، وهو في

(١) راجع أمالي الطوسي ص (١١٥)، وبحار الأنوار (٦٤/٢) و (٢٧٨/٤٤)، والكافي (٢٢٦/٢)، وأمالي الشيخ المفيد ص (٣٣٨)، وبشارة المصطفى ص (١٠٥).

وقال العلامة المجلسي رحمته في بيان الحديث ما حاصله: نفس المهوم لنا: أي المتفكر في أمرنا الطالب لفرجنا، أو المغتم لعدم وصوله إلينا، المغتم لمظلوميّتنا، تسييح: أي يكتب لكل نفس ثواب تسييح، وهمُّه لنا: أي اهتمامه بخروج قائمنا وسعيه في أسبابه ودعاؤه لذلك عبادة، أي ثوابه ثواب المشتغل بالعبادة، وكتمان سرنا جهاد: لأنه لا يحصل إلا بمجاهدة النفس.

ضيافة الله تعالى تماماً كالصائم الذي استجمع شرائط الصيام فاستحق بأنفاسه بلوغ درجة التسبيح الملائكي في شهر رمضان، لقول المصطفى ﷺ: " أنفاسكم فيه تسبيح " .

فآهات المهموم المحزون لما ارتكب في حقهم عليهم السلام تسبيحٌ بحمد الله تعالى و قدسه وتنزيهٌ له مما لا يليق، وهمه لهممهم عليهم السلام عبادة مقدسة، فالمهموم لهم في مقام العباد المتمحّضين للعبادة له عزّ وجل.

ولقد احتل هذا الخبر وأمثاله محلّ الأساس في وجدان الشيعة، فانطلقوا من حيث شاء الأئمة عليهم السلام، وفقه شيعة أهل البيت عليهم السلام أكبر الدروس الحسينية من تلك الأخبار ولم تمنعهم غيبة وليهم عليهم السلام عن تشييد هذا الشعار بكل جدّ وحزم، رغم ضيق الظروف وتعرضهم للمخاطر وتضافر الزمان عليهم، فجزاهم الله تعالى خيراً عن أئمتهم الأبرار عليهم السلام ووقفنا الله للسير على خطاهم، وحشرنا معهم ورزقنا توفيق الإستقامة على منهاجهم، ووقفنا لأداء حقوقهم ونيل مرضاتهم، وأمدّ أجيالنا القادمة بتسديداته وعناياته، وزاد في شرفنا بهم في الدنيا والآخرة، إنه سميع الدعاء.

شعيرة المآتم

يرتبط الحزن بطبيعة الحال بالمآتم، وهو المجلس الذي يعدّه أهل المصائب لتعديد مصائبهم، وتتداخل هذه الشعيرة في شعيرة المجالس، إلا أنّي أعتقد أن المآتم هي المجالس التي عرفها العرب وأقامها الأئمة عليهم السلام قبل أن تتطور إلى ما هي عليه اليوم، وهي المقتصرة على جانب الحزن والمصيبة دون أيّ ضميمة أخرى.

واهتم أهل البيت عليهم السلام بوسيلة المآتم كقناة إعلامية دارجة يتأثر بها العرب في نشر ظلاماتهم وإلفات النظر إليهم، ووجهوها لإحياء أمرهم، ورؤي في عيون الأخبار بسنده إلى الوشاء أن الإمام الرضا عليه السلام قال له: إني حيث أرادوا الخروج بي من المدينة جمعت عيالي فأمرتهم أن يبكوا عليّ حتى أسمع، ثم فرقت فيهم اثني عشر ألف دينار، ثم قلت: أما إني لا أرجع إلى عيالي أبداً^(١).

ورؤي في الكافي بسنده إلى يونس بن يعقوب عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: قال لي أبي: "يا جعفر، أوقف لي من مالي كذا وكذا لنوادب يندبني عشر سنين بمنى أيام منى"^(٢).

والهدف من ذلك ليس مجرد ذرف الدموع، فقد اختار الموسم والمكان ليصل صوته إلى أقصى عدد ممكن من المسلمين، فيبعثهم للسؤال عن سبب البكاء وعن شخصية المبكي عليه، ولكي يتفرق الناس راجعين لديارهم محملين بأنباء ظلامه أهل البيت عليهم السلام ومصيبتهم بشكل لا يمكن للسلطات الحاكمة مكافحته!!

وأخذت المآتم الحسينية طابع الرمزية التي تنطوي على عموم رزايا أهل البيت عليهم السلام ومحنتهم، وانطلقت منذ اليوم الأول لسقوطه على تراب كربلاء، وكانت الشام "عاصمة الحكم الأموي" المهدي الذي احتضن مآتم الأسرة النبوية في بداياتها، فقد ذكر أبو مخنف: أن يزيد (لعنه الله) أمر بأن يُصلب الرأس على

(١) راجع عيون أخبار الرضا (٢/٢١٨)، وبحار الأنوار (٤٩/٥٢ و ١١٧)، وإعلام الوري ص (٣٢٥)، والخرائج والجرائح (١/٣٦٣)، ودلائل الإمامة ص (١٧٦)، وكشف الغمة (٢/٣٠٥)، والمناقب (٤/٣٤٠).

(٢) راجع الكافي (٥/١١٧)، وتهذيب الأحكام (٦/٣٥٨)، ووسائل الشيعة (١٧/١٢٥).

باب داره وأمر بأهل بيت الحسين عليه السلام أن يدخلوا داره ، فلما دخلت النسوة دار يزيد لم يبق من آل معاوية ولا أبي سفيان أحد إلا استقبلهن بالبكاء والصراخ والنياحة على الحسين عليه السلام وألقين ما عليهن من الثياب والحلي وأقمن المأتم عليه ثلاثة أيام^(١).

وظلت كربلاء عاصمة المأتم الحسيني الأولى التي يقصدها الشيعة لتجديد الأحزان والأشجان ، ومنها انتشرت أصداء الحزن إلى سائر البقاع التي تدين بولاء أهل البيت عليهم السلام ، ففي حديث عبد الله بن حماد البصري عن الإمام الصادق عليه السلام : بلغني أن قوماً يأتونه من نواحي الكوفة أناساً من غيرهم ، ونساء يندبنه ، وذلك في النصف من شعبان ، فمن بين قارئ يقرأ وقاص يقص ونادب يندب وقائل يقول المرثي.

فقلت : نعم ، جعلت فداك ، قد شهدت بعض ما تصف.

فقال : الحمد لله الذي جعل في الناس من يفد إلينا ، ويمدحنا ويرثي لنا ، وجعل عدونا من يطعن عليهم من قرابتنا وغيرهم ، يهددونهم ، ويقبحون ما يصنعون^(٢).

وسياتي في شعيرة المجالس استيفاء الحديث حولها وتطورها إلى ما هي عليه اليوم ، فالمأتم الحسينية التي عقدها النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام هي النوبات الصغيرة التي امتدت جذورها اليوم في أعماق واقع الشيعة ووجدانهم ، وقد هيا إبداع الشعراء والرثاة والخطباء لبلوغ الذروة المأمولة من مشروع المأتم الحسيني.

(١) راجع بحار الأنوار (١٤٣/٤٥).

(٢) راجع كامل الزيارات ص (٣٢٥) ، ووسائل الشيعة (٥٩٩/١٤) ، وبحار الأنوار (٧٣/٩٨).

شعيرة لبس السواد

وأصبح السّواد في أيام عاشوراء من جملة شعائر الحزن الواضحة التي تلازم الشيعة في لباسهم وراياتهم ومجالسهم ومواكبهم، فاللون الأسود هو لون الحزن القائم الذي يتّشح به الحزونون، وبطبيعته يرمز إلى المآثم، ومجرد النظر إليه موجب للإنقباض والكآبة، واعتاد أهل المصائب على ارتدائه كعلامة ملفتة يُعرفون بها، وهي عادة قديمة وجذورها ممتدة قبل الإسلام، ولم تختصّ بالمسلمين وحدهم، فالألوية والشرائط السوداء علامة الحزن أو الكارثة في أغلب الحضارات، وهو تعبير يدركه شعور الإنسان.

وورث الشيعة هذه الشعيرة الحسينية وأخذت طابع المظهر في أيام أحزانهم على الإمام الحسين عليه السلام، فهم يرفعون الرايات السوداء، ويكسون المآثم والحسينيات وربما بعض البيوت بالقماش الأسود مع هلال المحرم، تعبيراً عن تفجّعهم وحزنهم واكتئابهم، وللسّواد إيحاء خاص في نفوسهم، وانعكاس مخصوص على أرواحهم، فهو يمتاز على البكاء بالدوام، وطبيعي أن يُستحب في عزاء الإمام عليه السلام بناءً على العمومات الواردة في تجديد العزاء، وصيرورته من جملة الشعائر الراجحة على سيد الشهداء عليه السلام.

ووردت روايات تنهى عن لبس السّواد مطلقاً، محمولة على الكراهة، وهي منصرفة إلى جعل السّواد شعاراً على نحو ما فعل فرعون ويفعل القس والرّهبان، وكما فعل بنو العباس، فهي تكره لبس السّواد باعتباره شعاراً لأعداء الله تعالى، لا لمصيبة أو كما فعل الأئمة عليهم السلام وشيعتهم، ووردت جملة كبيرة من

الروايات تؤكد لبس النبي ﷺ وآله عليه السلام للسواد في موارد الحزن وغير الحزن. وأورد المرحوم الفقيه المحدث الشيخ يوسف البحراني رحمه الله في الحقائق تلك الروايات التامة ثم عقب عليها بقوله: " ولم يستبعد استثناء لبس السواد في مآتم الحسين عليه السلام من هذه الأخبار لما استفاضت به الأخبار من الأمر بإظهار شعائر الأحران عليه ".

وأثبت النقل ارتداء العترة له حزنا على الإمام الحسين عليه السلام بحضور الإمام زين العابدين عليه السلام، ففي المحاسن بسنده إلى عمر بن علي بن الحسين قال: لما قُتل الحسين بن علي (صلوات الله عليه) لبس نساء بني هاشم السواد والمسوح، وكان لا يشتكين من حر ولا برد، وكان علي بن الحسين يعمل لهن الطعام للمآتم^(١).

وظلّ السواد شعاراً واضحاً من شعائر المحرم عند أهل البيت عليه السلام حتى وصل إلينا بالسيرة المتصلة، وعُرف به شيعة الآل في أيام عاشوراء، ويبدو أنهم كانوا يلبسونه من أول المحرم ولا ينزعونه إلى اليوم التاسع من شهر ربيع الأول.

وروى السيد ابن طاووس رحمه الله في الإقبال بسنده إلى الإمام الرضا عليه السلام في حديث يُبين فيه فضل اليوم التاسع من ربيع: " هذا يوم الإستراحة، ويوم تنفيس الكربة، ويوم الغدير الثاني، ويوم تحطيط الأوزار، ويوم الخيرة، ويوم رفع القلم، ويوم الهدو، ويوم العافية، ويوم البركة، ويوم الثارات، ويوم عيد الله الأكبر، ويوم يستجاب فيه الدعاء، ويوم الموقف الأعظم، ويوم التوافي، ويوم

(١) راجع المحاسن (٢/٤٢٠)، وبحار الأنوار (٤٥/١٨٨) و (٧٩/٨٤)، ووسائل الشيعة (٣/٢٣٧).

الشرط ، ويوم نزع السواد^(١) .

ودلالة الحديث ظاهرة في لبس السّواد إلى ما قبل اليوم التاسع من ربيع الأوّل ، وهي سيرة لازالت مطّردة عند أعلامنا وعلمائنا ، وقد عدّ العلامة الفاضل السيّد محمّد رضا الحسين الحائري في كتابه القيم " نجات الأمتة " أسماء عدّة من العلماء الأعلام ممّن قال باستحباب لبس السّواد في أيام عاشوراء ، كما أورد أسماء عدّة منهم من الملتزمين بالسّواد طيلة شهري المحرم وصفر والفاطميّة^(٢) .

شعيرة الإطعام

أخذ الإطعام في يوم عاشوراء صورة الظّاهرة والشّعار في أيام عاشوراء وسائر المناسبات المرتبطة بشهادة الأئمة عليهم السلام ، وعُرف الشّيعيّة بهذه الشعيرة الحسينيّة ، وأصبح قصد المآتم للتبرّك بالطّعام سنّة جارية في أيام المجالس ، وفي بلادنا يعتمد الشّيعيّة في طعامهم على الحسينيّات ، ومعهم كثيرٌ من أهل السنّة .

وارتبطت هذه الشعيرة بالحزن ومقتضى المصيبة من حيث المنشأ ، فعادة ما يشغل أهل العزاء عن الطّعام وإعداده بالأحزان والمآتم ، ولا بدّ وفقاً للأدب التي سنّها الإسلام من تصدّي من يحمل مهمّة الإطعام في هذا الظّرف ، وبما أنّ الشّيعيّة

(١) راجع إقبال الأعمال ص (٤٦٤) ، وبحار الأنوار (١٢٦/٣١) ، ومستدرك الوسائل (٣٢/٣) .

(٢) راجع كتاب النجاة للحائري ص (٩٥ و ٩٦) ، وعدّ من القائلين بالإستحباب : المحدث الشيخ يوسف البحراني رحمته الله في الحقائق ، والمرحوم الفاضل الدربندي رحمته الله في أسرار الشّهادة ، والشيخ النوري رحمته الله في مستدرك الوسائل ، وغيرهم .. وعدّ من الملتزمين بلبس السّواد طيلة الشّهرين والفاطميّة : الإمام السيد محسن الحكيم رحمته الله ، والآية الميرزا مهدي الشيرازي رحمته الله ، والفقهاء السيّد أبو القاسم الخوئي رحمته الله ، وغيرهم .

في أيام عاشوراء في مآتم وعزاء وبكاء، وهم مشغولون عن إعداد الطعام بالمصيبة، فيتصدى بعض الأختار لإعداد الطعام وتقويتهم على الشعائر، مضافاً لما في تناوله من التبرك بالطعام المعدود باسم الإمام الحسين عليه السلام، فيأكل منه الفقراء والأغنياء على حدّ سواء.. وأصبح الإطعام من لوازم المآتم الحسيني، وبه تنتظم دائرة العزاء، وهو من وظائف الشيعة الجليلة التي قدّمنا الكلام فيها.

وورد في عموم الإطعام ما روي في أمالي الطوسي بإسناد إلى هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لما مات جعفر بن أبي طالب أمر رسول الله صلى الله عليه وآله فاطمة عليها السلام أن تتخذ طعاماً لأسماء بنت عميس وتأتيها ونساؤها ثلاثة أيام، فجرت بذلك السنة، أن يصنع لأهل الميت ثلاثة أيام طعام^(١).

وروي في الكافي مسنداً إلى حريز عن زرارة أو غيره قال: أوصى أبو جعفر عليه السلام بثمانمئة درهم لمآتمه، وكان يرى ذلك من السنة، لأن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: اتخذوا لآل جعفر طعاماً فقد شغلوا^(٢).

وروي في الكافي مسنداً إلى أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ينبغي

(١) راجع أمالي الطوسي ص (٦٥٩)، والكافي (٢١٧/٣)، وبحار الأنوار (٥٤/٢١) و (٨٢/٧٩) و (٨٣)، ووسائل الشيعة (٢٣٦/٣)، ووسائل الشيعة (٣٦٤/٢٤)، والمحاسن (٤١٩/٢).

(٢) راجع الكافي (٢١٧/٣)، وقد وردت الرواية بألفاظ متفاوتة ومتطابقة في وسائل الشيعة (٢٣٧/٣ و ٢٣٨)، ومستدرک الوسائل (٣٧٩/٢)، وبحار الأنوار (٥٥/٢١ و ٦٣) و (٢١٥/٤٦) و (٨٣/٧٩)، والجعفریات ص (٢١١)، وشرح نهج البلاغة (٧/١٥)، وعوالي اللآلي (١٥/٤)، والمحاسن (٤٢٠/٢).

لجيران صاحب المصيبة أن يُطعموا الطعام عنه ثلاثة أيام^(١).
 ويُعلم من ذلك أنّ تكفّل الإطعام لأصحاب المصائب من آداب الإسلام التي
 حثّ عليها، وأمّا في خصوص الإطعام في عزاء ومأتم الإمام الحسين عليه السلام فقد
 مرّت قريباً رواية المحاسن بإسناد إلى عمر بن علي بن الحسين..
 قال: لما قُتلَ الحسين بن علي (صلوات الله عليه) لبس نساء بني هاشم السّواد
 والمسوح، وكنّ لا يشتكين من حرّ ولا برد، وكان علي بن الحسين عليه السلام يعمل
 لهن الطعام للمأتم^(٢).
 وتأمّل معي في هذا الخبر لترى مكمّن العجب! فإنّ الإمام زين العابدين عليه السلام
 يقوم بنفسه بإعداد الطّعام ليقوّي نساء أهل البيت عليه السلام على البكاء والعزاء!
 ويؤدّي ذلك إلى عظمة هذه الوظيفة وجلالة شأنها، وبفعله عليه السلام تطوّر الحال إلى
 أن أخذ اليوم عنوان الشعيرة الحسينيّة، وعُرف الشيعة به في كلّ بلد.
 ورؤي في الكافي بسنده إلى مصقلة الطحّان أنّه قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام
 يقول: لما قتل الحسين عليه السلام أقامت امرأته الكلبيّة عليه مأتماً وبكت وبكين النساء
 والخدم حتى جفت دموعهن وذهبت، فبينما هي كذلك إذا رأت جارية من
 جواربها تبكي ودموعها تسيل فدعتها، فقالت لها: ما لك أنت من بيننا تسيل
 دموعك؟ قالت: إني لما أصابني الجهد شربت شربة سويق، قال: فأمرت
 بالطعام والأسوقة فأكلت وشربت وأطعمت وسقت، وقالت: إنّما نريد بذلك أن

(١) راجع الكافي (٢/٣١٧)، ووسائل الشيعة (٣/٢٣٧).

(٢) راجع المحاسن (ج ٢/ص ٤٢٠)، وبحار الأنوار (ج ٤٥/ص ١٨٨) و (ج ٧٩/ص ٨٤)،
 ووسائل الشيعة (ج ٣/ص ٢٣).

نتقوى على البكاء على الحسين عليه السلام^(١).

ولا شك أن سقي الماء له فضل كبير، ويتأكد استحبابه عند قبر الإمام الحسين عليه السلام وقد مرّ ذلك، وأوردنا رواية المدائني: "من سقى يوم عاشوراء عند قبر الحسين عليه السلام كان كمن سقى عسكر الحسين عليه السلام وشهد معه" وأصبح السقي اليوم للماء وغيره من مظاهر الشيعة في شهر المحرم أيضاً، ومن الشعائر الحسينية المهمة، ويتبرّع المؤمنون للتصدي لذلك ويبدل الأخيـار الجهد والمال في سبيل الإبقاء على هذه المظاهر.

وتعتمد شعيرة الإطعام والسقي وسائر الشعائر الحسينية على إنفاق الشيعة الأبرار ونذوراتهم بشكل كبير، ولم يستقم أمر هذه المظاهر كلّها لولا بذل الأسخياء قربة لله تعالى وتقرباً إلى أهل البيت عليهم السلام، وتعتمد الحسينيات في إطعامها وفي إدارة برامج العزاء على صلة الطيبين لأئمتهم عليهم السلام والنذور التي أصبحت اليوم تشكّل صندوقاً مستقلاً لدعم مسيرة العزاء وشعائر المذهب.

(١) راجع الكافي (٤٦٦/١)، ومستدرک الوسائل (٣٣٨/١٦)، وبحار الأنوار (١٧٠/٤٥).

وتتمّة الخبر: وقال عليه السلام: وأهدي إلى الكلبية جوناً لتستعين بها على ما تمّ الحسين عليه السلام فلما رأّت الجون قالت: ما هذه؟ قالوا: هدية أهداها فلان لتستعيني بها على ما تمّ الحسين عليه السلام فقالت: لسنا في عرس، فما نضع بها، ثم أمرت بهن فأخرجن من الدار، فلما أخرجن من الدار لم يحس لها حس كأنما طرن بين السماء والأرض ولم ير لهن بعد خروجهن من الدار أثر.

المصيبة الراتبة

اصدااء المقتل والشعائر الحسينية



بإشراف
الدكتور الشيخ محمد جعفر نوري